بِرُّ الوالدين كفارة الكبائر

امرأة من دومة الجندل، عملت موبقة كبرى، إذ دخلت في شيء من أمر السِّحر، ثم استيقظ إيمانها، وإذا بلسَعات الندم تُرهق فؤادها، فأرادت التوبة، فلم تدرِ ما تصنع، فلم تجد بُدّاً إلا أن تقصد سيد الخلق محمداً ﷺ، فعنده ستجد حلّاً لأزمتها، وكشفاً لغمَّتها؛ فقطعت القفار، وعبرت تلك المساحات الكبار، حتى دلفت إلى المدينة، وإذا بها تفجأ بأن الرسول ﷺ قد مات، فسحَّ الدمع من جفنها مدراراً، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «رأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفيها، حتى إني لأرحمها، وهي تقول: إني لأخاف أن أكون قد هلكت».

ثم أخذت تحدِّث عائشة بهذا الذنب الذي أقضَّ مضجعها، وذكرت أمر السحر، تقول عائشة: «فسألت أصحابَ رسول الله ﷺ حداثةَ وفاةِ رسول الله ﷺ وهم يومئذ متوافرون، فما دروا ما يقولون لها!

وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلم إلا أنهم قالوا: لو كان أبواك حيَّين، أو أحدُهما لكانا يكفيانك».

أخرج هذا الأثر الحاكم[١]، وقال: «الغرض في إخراجه في هذا الموضع إجماعُ الصحابة حِدثانَ وفاة رسول الله ﷺ أن الأبوين يكفيانها».

وهذا يدل على عظيم ثواب بر الوالدين، وجزالة جزائه.

وروى ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، إني أصبت ذنباً عظيماً فهل لي توبة؟ قال: **هل لك من أم؟** قال: لا، قال: **هل لك من خالة؟** قال: نعم، قال: **فبِرها**»[٢].

والحديث ضعيف[٣]، ولكن تعضده القصة السابقة، ويعضده ما رواه زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار أن رجلاً أتى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: إني خطبت امرأة، فأبت أن تنكحني، وخطبها غيري فأحبَّت أن تنكحه، فغرت عليها فقتلتها، فهل لي من توبة؟

(١) المستدرك (٨/ ١٣٣)، وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه»، وقال الذهبي في «التلخيص»: «صحيح»، وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٦١): «إسناد جيد إلى عائشة رضي الله عنها»، وقال المعلمي ـ آثار المعلمي (٢/ ٣٧٣) ـ: «أما السند فلا كلام فيه، وإنما الشأن في هذه المرأة الدُّومِيَّة، ومَن تأمل القصة.. وسكوت الصحابة عن إنكارها علم أنه ليس من الإنصاف تكذيبها».

(٢) أخرجه أحمد (٤٢٢٤)، والترمذي (١٩٠٤).

(٣) لا يصح إلا مرسلاً كما ذكر ابن المديني، والترمذي، والدارقطني، ينظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٤٣٥).

فأجابه ابن عباس جواباً يستحق التأمل والاستفهام؛ إذ قال له: «أمك حية؟» قال: لا. قال: «تب إلى الله ﷻ وتقرَّب إليه ما استطعت»[(١)].

فاستبهم على عطاء بن يسار سببُ سؤال ابن عباس عن أمه، فبادر ابنَ عباس قائلاً: «لِمَ سألته عن حياة أمه؟» فقال ابن عباس: «إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله ﷻ من بر الوالدة».

فهذه النصوص تواطأت على أن بِرَّ الوالدين يكفِّر الكبائر[(٢)]؛ وما ذلك إلا لعظم هذا العمل، وفضل هذه العبادة.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥) وإسناده صحيح.

(٢) فإن قيل: وهل تكفر الكبائر بالأعمال الصالحة؟ فيقال: إن هذه المسألة تكلم فيها أهل العلم، ولخَّصها ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٢٩) فقال: «إن كان مرادهم أن من أتى بفرائض الإسلام وهو مصرٌّ على الكبائر تغفر له الكبائر قطعاً، فهذا باطل قطعاً، يعلم بالضرورة من الدين بطلانه، وإن أراد هذا القائل أن من ترك الإصرار على الكبائر، وحافظ على الفرائض من غير توبة ولا ندم على ما سلف منه، كفرت ذنوبه كلها بذلك... فهذا القول يمكن أن يقال في الجملة».

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن الحسنات التي قوي فيها الإخلاص والصدق أنه قد يكفَّر بها، فقال ـ كما في مختصر الفتاوى المصرية (ص٢٦١) ـ: «لا يقال في كل بغي سقت كلباً غفر لها؛ لأن هذه البغي قد حصل لها من الصدق والإخلاص والرحمة بخلق الله ما عادل إثم البغي، وزاد عليه ما أوجب المغفرة، =

ولذا قال التابعي الجليل مكحول: «بر الوالدين كفارة الكبائر»[١].

ومثله جاء عن الإمام أحمد[٢].

فمن وقع في الذنوب، وانغمس في الخطايا، وأراد التوبة، فليلزم قدم والديه فثَمَّ مغفرة الذنوب، وثَمَّ تحصيل المطلوب.

إنهما الوالدان، وما أدراك ما الوالدان، اللذان قاما عليك مُنذ اللحظة الأولى لك في الحياة، فأحسنا إليك، واختصَّاك بمعروفهما، وآثراك ببرهما، يمرضان لمرضك، ويحزنان لحزَنك، ويُسَران لفرحك، ويسعيان في حاجتك، ويصبران على لأوائك، ويحتملان سوء طباعك، ويكدحان لأجلك حتى شَبَبتَ عن الطوق، واشتد منك العُود!

والبر بهما عمل عظيم تتنزّل فيه الرحمات، وتُكشف به الكُربات، وهو أمارة الصلاح، ومفتاح النجاح، وزينة الحياة، ومعقد النجاة، بالبر يصلح أبناؤك، ويجاب دعاؤك، البار بوالديه يعيش حياة السعداء، ويأمن من ميتة البؤساء.

يقول الرسول ﷺ: «**الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن**

= والمغفرة تحصل بما يحصل في القلب من الإيمان الذي يعلم الله وحده مقداره وصفته».

(١) حلية الأولياء (٥/ ١٨٣).

(٢) الآداب الشرعية (١/ ٤٣٦).

شئت، فأضع ذلك الباب، أو احفظه»[١].

استصغار نفسك عند والديك، وذُلُّك بين أيديهما هو الشرف العظيم، والرفعة التي لا تُسَامى.

قلِّبْ طرفك في الناس، لن تجد شخصاً ناجحاً في الحياة إلا وله من بر الوالدين نصيب.

ولربما أردت سفراً، أو عقدت موعداً، فرأى والداك خلاف ما تريد، فعين التوفيق أن تخضع لقولهما فثَمَّ البركة المدرار، والخير الهطال.

يقول محمد بن بشار ـ وهو شيخ أصحاب الكتب الستة كلهم ـ: «أردت الرحلة لطلب الحديث، فمنعتني أمي، فأطعتها، فبورك لي»[٢].

ويقول الحسن بن عبد الوهاب الوراق: «كنت قد اعتزمت على السفر للتجارة، فمنعني والدي، فأطعته، فجلست، فرزقني الله بعد ذلك فأكثر، فله الحمد»[٣].

وحين يكبَر الوالدان، وتَهِنُ منهما القوى، فإنهما يحتاجان مزيداً من العناية والتلطف؛ ولذا خصهما الله بمزيد من البر، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥١١)، والترمذي (١٩٠٠)، وابن ماجه (٢٠٨٩)، وصححه الترمذي.
(٢) تاريخ بغداد (٢/ ٤٥٨).
(٣) المرجع السابق (١٢/ ٢٨٣).

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣]، فقد يستغني الوالد عن أولاده حال شبابه، بخلاف ما إذا كبرت به السن، فوهن عظمه، وثقل سمعه، وكلَّ بصره، وضعفت صحته، وصارت أخلاقه تضيق، وبدأت ذاكرتُه تتضاءل، فإنه يحتاج إلى رعاية أكبر، وتعامل ألطف، وعلى الأولاد أن يقبلوا على خدمة الوالدين في هذه المرحلة بأنفس رضية، ووجوه متهللة، وأن يراعوا كبرهما، ويتحملوا جفوتهما، وكثرة شكواهما، فثَمَّ التوفيق والنجاح، والفوز العظيم والفلاح.

وإن من دقيق البر بهما عند الكبر أن يستمع الابن لحديثهما مستمتعاً مسروراً، حتى ولو كان الحديث معاداً مكروراً؛ لأنه مع السنين تضعف ذاكرة الوالدين؛ فربما أعادا الحديث في المجلس المرة والمرتين.

وإن من البر أن يعلم الابن أن والده يأنس بالحديث عن حادثة معينة؛ فيسأله عنها، حتى يتحدث بها.

وإن من البر أن يعلم أن والده يأنس ببعض الناس؛ فيكون هذا الابن سبباً في اجتماعهم بوالده.

وإن من البر أن يشرك الأولاد والدهم في الحديث إذا جلسوا عنده؛ فإنه ربما ثقل سمعه؛ فيتركه الأولاد في المجلس معزولاً يناجي نفسه!

وإن من البر المؤكد لهما حال الكبر إشباع مشاعرهما؛

بإعلان شكرهما، والاعتراف بمنَّتهما، والتنويه بنعمتهما، والإشادة بفضلهما.

وإن من نعمة الله على الابن أن يَمُنَّ عليه بالقرب من والديه؛ خاصة عند الكبر؛ يواسيهما ويُسلِّيهما، ويتملَّى بالنظر إليهما، فلا تفسدن هذا الأمر بقولك: أين إخوتي؟ فأنت بقربك منهما إنما تقرع باب الجنة، فَلْيَهْنِك لك الأمر، ولا تتضجَّرْ فيفوتَك الأجر.

وإن من الخذلان ألا يُحسن الابن الجلوس عندهما؛ بل إذا جاء كان على عُجالة، وإن جلس أخذ يقلِّب جوَّاله؛ ثم ينصرف عنهما مسرعاً قاصداً أصحابه أو عياله؛ إن هذا لهو الحرمان المبين.

وإن برَّ الوالدين ليس مقصوراً على تنفيذ أوامرهما فقط؛ بل برَّهما يكون في إدخال السرور عليهما بأي طريق؛ فحُسْنُ علاقتك بإخوتك وأخواتك من البر، وتميزُك في عملك من البر، وتفوُّقُك في دراستك من البر، وحُسْنُ سمعتك في عملك وعند الناس من البر.

ولقد خلق الله الآباء مختلفي الطباع، فبعضهم ليِّن الجانب، وبعضهم فظُّ الأخلاق، وبعضهم بسَّام أَغر، وبعضهم عابس أشِر، والابن الموفق من يحسن التعامل مع أبيه حسَب طبعه، ولا يمنعه سوءُ طبع أبيه من بحثه عن أسباب سروره ومراضيه.

وإن الدعاء للوالدين من أعظم البر الذي يقدم لهما؛ كيف وقد أمر الله به، فقال ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: ٢٤].

علّق ابن عاشور على الآية قائلاً: «في الآية إيماء إلى أن الدعاء لهما مستجاب؛ لأن الله أذن فيه»[١].

والدعاء أعظم عمل تقدمه لوالدك الميت؛ فهو أفضل من الصدقة عنه، وحج التطوع؛ لقول النبي ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث**»: وذكر منها: «**أو ولد صالح يدعو له**»[٢].

ويقول الرسول ﷺ: «**إن الله ﷻ ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب، أنَّى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك**»[٣].

فلا ينبغي للابن أن يَمَلَّ من الدعاء والاستغفار لهما، ولا أن يسأم.

وإن هنا أمراً يحسن التنبيه عليه، وهو أن الوالدين من جملة البشر يعتريهما ما يعتري البشر من الخطأ والجهل والظلم، ولكن لا ينبغي للولد إذا جهلا عليه أن ينهَر، أو

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٧٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١).
(٣) أخرجه أحمد (١٠٦١٠) وحسّنه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ٣٧٠).

يهجُرَ، أو يخاصم، أو يفجُر؛ بل يصفح، ويحسن، ويسامح، ويضاحك؛ وخروجك مغلوباً معهما هو غاية الانتصار؛ وفي ذلك يقول يزيدُ بن أبي حبيب: «إيجاب الحجة على الوالدين عقوق»[(١)].

وقد فسر ابن الجوزي كلام يزيدَ، فقال: «يعني: الانتصار عليهما في الكلام»[(٢)].

وإذا كان الله ـ سبحانه ـ أمر بالإحسان إلى المسيء فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤] فأول من يطلب معه الإحسان ـ إذا أساء ـ الوالدان.

فاللَّهُمَّ ارحم والدينا كما ربونا صغاراً[(٣)].

---

(١) بر الوالدين، لابن الجوزي (ص٨).

(٢) المرجع السابق.

(٣) خطبت بهذه المقالة في جامع الحسين بمحافظة الزلفي بتاريخ ٧/ ٦/ ١٤٣٩هـ، وقد شرفتُ بحضور والدتي لهذه الخطبة، وكان قد ابتدأها وجع؛ توفيت على إثره في نفس السَّنة بتاريخ ١٥/ ١٢/ ١٤٣٩هـ وكانت آخر خطبة حضرَتْها عندي؛ فاللّهم ارحمها، وضاعف مثوبتها، واجعلها هانئة منعَّمة مسرورة.